بسم الله الرحمن الرحيم

المؤتمر السنوي لجامعة "نور-مبارك"

بالماطى - قازاقستان

من ١٨ ديسمبر ٢٠٠٣م.

موضوع المؤتمر:

الدراسات الإسلامية والعربية

موضوع البحث:

إنسانية الإنسان في القرآن الكريم

إعداد أ.د. سامي عفيفي حجازي

أستاذ العقيدة والفلسفة

بجامعة الأزهر والمعار إلى جامعة "نور-مبارك

١٤٢٣هـ — ٢٠٠٣م.

بسم الله الرحمن الرحيم

إنسانية الإنسان في القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين. الذي أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة. والصلاة والسلام على رسول الإنسانية سيدنا محمد الصادق الأمين. الذي بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وهدى إلى القرآن الكريم.

وبعد:

فلقد كان مفهوم "الإنسان" مجالا لبحث الكثيرين ممن ينتمون إلى مختلف المذاهب الفكرية والعلمية على اختلاف بيئاتهم وعصورهم. والمتصفح لتلك المذاهب يقف على شاطئ بحر خضم يحمل الآراء المتعددة والنزعات المختلفة....

لقد بحث فيه علماء النفس والأخلاق والاجتماع ورجال الفكر والفلسفة، كما حظي بالنصيب الأوفر من عقول وتجارب الباحثين من علماء علم الأحياء والأجناس البشرية وغيرهم.

بحث فيه كل هؤلاء، وكل ينظر إليه من جانب معين ويتناوله من زاويته الخاصة، وقبل هؤلاء وأولئك كان للأديان القديمة في مصر والهند وفارس والصين.... وغيرها نظرتها إلى الإنسان. (١)

وإذا كان العلماء والفلاسفة على اختلاف مذاهبهم ومناهجهم قد تناولوا الإنسان بالتعريف والتفسير، إلا أن تفصيل هذه المذاهب لا ينبغي أن يكون هدفا لبحث يعتمد أساسا على الوحي الإلهي – هذا من ناحية. ومن ناحية ثانية فإن خير مصدر يعتمد عليه في الكشف عن إنسانية الإنسان إنما هو القرآن الكريم.

قال تعالى: "ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ". (٢)

إن مما يتطلبه البحث العلمي تحديد سير البحث وخط تفكيره، وهذا لا يكون إلا عن طريق تحديد المصطلح أو المصطلحات التي تحدد موضوع البحث ومجاله.

– وإنسانية الإنسان في القرآن الكريم – "كعنوان، وكمصطلح يحسن أن أوضح ما يمكن أن يفهم منه وما تشير إليه خطته".

ولما كان القرآن الكريم قد أنزله الله تبارك وتعالى على خاتم أنبيائه سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – بلسان عربي مبين فإن من الطبيعي أن نستقرأ البيان عن إنسانية الإنسان في القرآن الكريم الذي جعلناه عنوانا لهذا البحث بالوقوف على مدلول هذه الكلمة "إنسان" في لغة القرآن ولذا يتحدد البيان فيما يلي:

أولا: مفهوم الإنسان في اللغة.

ثانيا: مفهوم الإنسان في القرآن الكريم.

<u>أولا:</u> مفهوم الإنسان في اللغة:

جاء في مراجع ومصادر اللغة العربية أن مدلول كلمة "إنسان" اسم جنس يقع على الذكر والأنثى والمفرد والجمع، وإختلف في اشتقاقه وأنه إما من: "الأنس" أو من: النسيان. ولذا يرد إلى أصله في التصغير فيقال: أنيسان. قال ابن عباس – رضي الله عنه – إنما سمى الإنسان إنسانا لأنه عهد إليه فنسي وعلى هذا قول أبي **تمام:**

لا تنسينَ تلكَ العهودَ فإنَّما سُمِّيتَ إنساناً لأنَّكَ ناس

وفي مادة: (أ. ن. س) جاء في معاجم اللغة أيضا: "الإنسان من المؤانسة. وأنسه: يؤانسه مؤانسة لاطفه وأزال وحشته، فهو مؤنس وأنيس. والأنيس: الذي يستأنس به وتأنست به: إذا سكن إليه القلب. وأنست الشيء علمته كما قيل أن الإنسان يأنس بالحق كما يأنس بالخلق، فروح الإنسان تأنس بالحق وجسمه يأنس بالخلق وإلى هذا أشار الشاعر في قوله:

فالجسم مني للجليس مؤانس وحبيب قلبي في الفؤاد أنيس

وآنسته أبصرته. وتأنس منه رشدا علمه. ولذا كان الإيناس: خلاف الإيحاش."(٣).

من هذا العرض اللغوي لمفهوم كلمة "إنسان" يمكننا تلخيص المعاني التالية:

المعنى الأول: أن الأصل الاشتقاقي لكلمة إنسان سواء أكان من الأنس أو من النسيان يدل على الصفات الفطرية في خِلقة الإنسان.

المعنى الثاني: أن استعمال الفعل "أنس" يرشدنا إلى ما يميز الطبيعة الإنسانية من الخصائص الفطرية سواء منها ما يتصل بالجانب العقلي: من المعرفة الحسية والعقلية وما يتبع ذلك من تذكر ونسيان.

أو ما يتصل بالغريزة الاجتماعية في الجنس الإنساني كما عبر عنها الحكماء بقولهم: "الإنسان مدني بطبعه". ويقول الراغب الأصفهاني: والإنسان سمي بذلك لأنه خلق خلقه لا قوام له إلا بأنس بعضهم ببعض (٤) ولهذا كان الإنسان كائنا اجتماعيا بطبعه كما قال علماء الاجتماع.

<u>ثانيا:</u> مفهوم الإنسان في القرآن الكريم.

للكشف عن هذا المفهوم ينبغي أن نشير إلى ناحيتين:

(١) طبيعة الإنسان: وهل هو مادة فقط "جسم"؟ أم هو روح فقط؟ أو هو مزيج من الروح والجسم؟

(٢) تعريف الإنسان. وذلك بمعنى الوقوف على الصفات والخصائص التي ميز الله تعالى بها الإنسان عن غيره من المخلوقات.

والبحث عن ماهية الإنسان وتعريفه في ضوء القرآن يسلمنا إلى ضرورة الفصل في قضية العلاقة بين ماهية الإنسان ووجوده من خلال آيات القرآن الكريم. وهذه مسألة لها أهميتها خاصة إذا علمنا

أن الوجودية الملحدة قد ربطت بين القول بأن وجود الإنسان سابق على ماهيته وبين إنكار وجود الله تعالى، وبهذا يتضح لنا أن النقاط التي يشتمل عليها البيان تتلخص فيما يلي:

أ- طبيعة الإنسان في القرآن.

ب- ماهية الإنسان في القرآن.

ح- العلاقة بين ماهية الإنسان ووجوده في القرآن الكريم.

ورغم أنه لا فرق بين طبيعة الإنسان وماهيته أو تعريفه. إلا أنني أردت الحديث عن الطبيعة الإنسانية بنظرة عامة من حيث كونها مادية أو روحية أو مزيجا من المادة والروح.

النظرة المتطرفة إلى طبيعة الإنسان

تبدو هذه النظرة في اتجاهين:

(١) المادية المفرطة. (٢) والروحية المتعنتة.

أما المادية المفرطة: فتتمثل في الفلسفة المادية التي ينكر أصحابها كل ما وراء الطبيعة والحس ولا يقرون سوى المادة وحدها[٥]. وقد صور ابن سينا قولهم هذا وحدده تحديدا دقيقا حيث يقول: "اعلم أنه قد يغلب على أوهام الناس أن الموجود هو المحسوس وأن ما لا يناله الحس بجوهره ففرض وجوده محال" وأن ما لا يتخصص بمكان أو وضع بذاته كالجسم أو بسبب ما هو فيه كأحوال الجسم فلا حظ له من الوجود..."[٦]

تلك هي دعوى أصحاب النظرة المتطرفة عن الموجودات، وهذه الدعوى تهدم حقيقة إنسانية الإنسان وتفقده ماهيته المتميزة، وهي أيضا دعوى المحدثين منهم أمثال "بوخنز"[٧] "وأرنست هيكل"[٨] الألمانيين - كما كانت فكرة الماديين القدماء مثل "ديمقريطس" اليوناني.

... من حقيقتها تقدم العلم وتحطيم الذرة اللهم إلا في طريقة ... [illegible] ... التطور الذي وجد فيه

الماديون فرصة لتأييد مذهبهم. لذلك لم يكن غريبا من الماديين أن تكون لهم دراسات بعنوان: الإنسان آلة[٩] وأن يعبروا عن رأيهم في الإنسان وطبيعته بقولهم: "إن الدماغ يفكر كما تهضم المعدة وكما تفرز الكبد الصفراء، فالفكر بالإضافة إلى الدماغ كالصفراء بالإضافة إلى الكبد"[١٠].

وهكذا تكون الخاصة الإنسانية وهي التفكير الذي هو عمل العقل. والروح مجرد أثر مادي لعضو مادي، أما العنصر الأسمى في الإنسان وهو الروح أو النفس فلا وجود له في رأيهم.

وأما الروحية المتعنتة: فتتمثل في بعض الفلسفات والأديان الهندية كالبرهمانية الأولى، فرغم أنهم يرون أن الإنسان جسم وروح، إلا أن الحق والوجود الحقيقي في الإنسان هو ما يحل فيه من الجوهر المطلق أو الروح المطلقة "براهمان" وما عدا ذلك في طبيعة الإنسان من الجسم والروح الشخصية فهو باطل زائف[١١].

وقد كانت هذه المقولة أساسا لما عرف عن بعض المذاهب الهندية من التشدد والتعنت في تعذيب الجسد وحرمانه من طيبات الحياة ورفض الدنيا، وتحريم النكاح والتناسل، وما يؤدي إليه من الطعام والشراب، وهكذا حتى يذبل البدن ويضعف لتفارقه النفس فتلحق بالعالم الأعلى.

وتمشيا مع أصحاب هذا المسلك فهم يرفضون السعي في الأرض وطلب الرزق، وإنما يعيشون عالة على غيرهم عن طريق الصدقة التي تيسر لهم القليل من الطعام والشراب الذي يقيم لهم الحياة. بل قد يتركون أيضا هذا القليل[١٢].

وإلى هؤلاء يشير الشيخ محمد عبده بقبوله: إن من الأديان السابقة للإسلام ما ظن أهله أن هذا الكون الجسماني وما فيه من نور وظلمة وأجرام وأعراض إنما هو كون مادي. لم يشأ الله خلقه إلا ليكون حبسا للأنفس وفتنة للأرواح، فمن طلب رضا الله فليعرض

عنه، وليبعد عن طيباته، وليأخذ بدنه بضروب الإعنات والتعذيب وأصناف الحرمان [١٣].

وفي هذه الدعوى ما يشير إلى أنها فلسفة عنصرية ترى بعين واحدة وهذا هو منطق هؤلاء وأولئك، بل كما تصنع النعامة التي تدفن رأسها في التراب متجاهلة الصياد رغم وجوده.!!!

وهذا هو السر الذي أودى بهم جميعا إلى الاضطراب النفسي والقلق والتوتر في أعماق قلوبهم، وهم يحاولون أن يبرروا ذلك كله بإسناده إلى الطبيعة أو إلى طبيعة الحياة.

ونحن نقول لهم إن الطبيعة مخلوق لا خالق، ومصنوع لا صانع، ومنفعل لا فاعل، فأنتم الذين تتحكمون فيها بعلمكم وفكركم، وتسخرونها في خدمة أغراضكم، فعودوا بفكركم إلى ما وراء الطبيعة تشاهدون خالقها لو كنتم تملكون إنسانية الإنسان، ثم تأملوا مصنوعات الله تجدوا فيها النظام والعناية والتدبير الذي لا يمكن أن يكون موجودا بالمصادفة.

وبالقطع هذا من طبيعة عدم الإيمان لا من الطبيعة أو من طبيعة الحياة، إذا أن في طبيعة الحياة الإنسانية جانبا لا يملأه إلا الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر.

نظرة القرآن إلى طبيعة الإنسان

يقرر القرآن الكريم أن الإنسان خلقه الله تعالى مكون من الجسم والروح، فالجسم: هو هذا الهيكل المحس. أي المركب الترابي الذي لا يتم أمره إلا به، والروح: هو الجوهر الذي ليس من شأنه إلا التذكر، والحفظ والتفكر، والتميز....

فالجسم من عالم الشهادة، والروح من عالم الغيب، والإنسان مكون منهما معا فطبيعته مزيج من الروح والمادة، ولذا فهو مطالب بخدمة الجسم والروح، وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق دون تطرف مادي أو غلو روحي[١٤].

والجسم لا يحتاج إلى إثبات ضرورة أنه مشاهد محسوس، وإنما الذي يحتاج إلى الإثبات هو الروح، ودلالة القرآن الكريم على وجودها ظاهر في الآيات الواردة في خلق الإنسان، وفي صفات وخصائصه، وفي بقاء الروح بعد الموت.

ومن هنا كانت عطاءات القرآن الكريم للإنسان، وبيان حقيقته، وتحديد منازل وجوده، وعلاقته بخالقه ومهمته في الوجود، كما اتسمت إنسانية الإنسان في الحياة البشرية والنفس الإنسانية على الركائز التالية:

أولا: نعمة الخلق.

ثانيا: نعمة الهداية.

ثالثا: نعمة الفكر والبيان.

* أما نعمة الخلق فقد جاء في بيانها آيات متعددة قال تعالى:"لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ".[سورة التين].

نعم لقد كرم الله الإنسان بشتى أنواع التكريم، فالإنسان وإن كان مخلوقا من الطين، إلا أنه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر وتعيا عن إدراكه المدارك بتكريم الله له حيث:

كرمه في أصله وجعله نسلا لنبي من أنبياء الله هو آدم – عليه السلام – أبو الإنسانية الذي خلقه الله بيده الكريمة، ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وعلمه أسماء الأشياء ...

قال تعالى: " إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُوحِي فَقَعُوا لَه سَاجِدِينَ "[١٥].

كما كرمه في خلقه فصوره أحسن تصوير وأبدعه قال تعالى:" يَا أَيُّهَا الإنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ". [سورة الانفطار، الآية ٦-٧]

وقال تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانَ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ (١٦)

و قال تعالى: وإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" (١٧) .

وقال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ(١٨). "وقال تعالى: أَفَرَءَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ(١٩)."

فهذه الآيات الكريمة واضحة في بيان نعمة خلق الإنسان وتكريمه وأنه مكون من عنصرين:

الأول: مادي: وهو الجسم المحس المكون من المادة الأرضية . الطين والنطفة"

الثاني: روحي: وهو الروح التي ذكرها الله تعالى في قوله "ونفخت فيه من روحي وقوله: "ونفخ فيه من روحه"

وذلك بعد تسوية الجانب المادي في الأطوار والمراحل التي مرت بها المادة في تحولاتها المتعددة وجعلها صالحة لفيضان الروح (٢٠)

وهذا واضح في نعمة خلق الله تعالى لآدم – عليه السلام – كما هو في الآيات السالفة، ومثله سائر أفراد الإنسان يتضمن فعلين إلهيين:

أحدهما: التسوية وهي كما يقول الإمام الغزالي: – "فعل في المحل القابل للروح وهو الطين في حق آدم والنطفة في حق بنيه، وهذا العطاء الإلهي يتصل بالجانب المادي في خلق الإنسان. إذ التسوية هي فعل الله تعالى في مادته الأرضية حتى تستعد لقبول الروح".

وثانيهما: إمداد الجسم بالروح وهو المعبر عنه بالنفخ في قوله تعالى "ونفخت فيه من روحي" وهذا الفعل يتعلق بالجانب الروحي في الإنسان. وهو جانب ليس من المادة الأرضية بدليل هذه الإضافة التي ترفع من شأن الإنسان وقدره "من روحي وهي في نفس الوقت" تجعل معراج الإنسان إلي ربه ممثلا في هذا الجانب الروحي.

كما بين الحق تبارك وتعالى وصف أطوار النفس الإنسانية فقال: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"(٢١) وقال تعالى في موطن آخر: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا"(٢٢).

فقد دلت هذه الآيات على نعمة خلق الله للإنسان من الجانب المادي والجانب الروحي. كما أشارت إلى الأطوار التي تمر بها هذه المادة قبل نفخ الروح في الجنين. "سلالة من طين" ثم نطفة. ثم علقه. ثم مضغة. ثم عظاما. ثم عظاما مكسوة لحما". وفعل الله تعالى في المادة وتحويلها في هذه الأطوار حتى تصل إلى درجة الاستواء والاعتدال وتستعد لفيضان الروح هو معنى التسوية كما تبين فيما تقدم.

هذا هو البيان الإيماني الذي أشار إليه القرآن الكريم كبرهان على وجود الخالق المبدع كما قدم القرآن الكريم عدة براهين يقينية منها:

البرهان الأول: مم خُلِقَ؟

ومن الدلائل على هذا قوله تعالى:" فَلْيَنْظُرِ الإنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ. "(٤٣) وقال تعالى: وأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ والأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى". (٢٤)

البرهان الثاني: كيف كان الخلق؟

ومن الدلائل على هذا قوله تعالى في حقيقة خلق الإنسان والمراحل التي تسبق وجوده. "هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا. إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وإِمَّا كَفُورًا". (٢٥)

ثم يلفت الله تبارك وتعالى نظر الإنسان إلى أصل خلقته فيقول على وجه الاستفهام التعجبي: " أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ القَادِرُونَ" (٢٦) حيث جعله الله تبارك وتعالى مخلوقا وكان جمادا، وناطقا وكان غير ناطق، وسميعا وكان أصم، وبصيرا وكان غير بصير وأودع باطنه وظاهره بل كل عضو من أعضائه، وكل جزء من أجزائه عجائب فطرة وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفون، حيث كان كل طور خلقا جديدا قال تعالى: "يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ". (٢٧) فليتدبر الإنسان خلقته ومبدأه، وأنه خلق من ماء دافق، وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب، وأن من أوجده قادر على إعادته للبعث والنشور والجزاء.

هذا وقد جاءت السنة المطهرة دالة أيضا على ما أفادته الآيات القرآنية السالفة وأن الإنسان مركب من عنصرين:

(١) عنصر مادي

(٢) عنصر روحي

ومن ذلك ما أخرجه البخاري بسنده عن عبد الله قال: حدثنا رسول الله – صلي الله عليه وسلم – وهو الصادق المصدوق – قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك. ثم يبعث الله إليه ملكا بأربع كلمات: فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أو سعيد. ثم ينفخ فيه الروح(٢٨).

فهذا الحديث واضح في الدلالة على أن الإنسان خلق من مادة وروح. فالمادة واضحة في العنصر الذي يمر بمراحل الخلق في رحم الأم المنزل الأول من منازل الخلق. كما أن نفخ الملك للروح يفسر لنا إنشاء الإنسان خلقا آخر كما أشارت إليه الآيات السالفة.

وعلى ضوء ما تقدم يتضح أن نعم الله على الإنسان لا تعد ولا تحصى، وقد ذكرها الله لنا وذكرنا بها في أنفسنا وفي الآفاق من حولنا، وبينها لنا في أكثر من موضوع كما تقدم وكما في سورة الرحمن التي عدد منها كثيرا من مظاهر جلاله وإكرامه وآلائه على عباده مذكرا لهم بهذا التساؤل المتكرر "فبأي آلاء ربكما تكذبان" [سورة الرحمن].

وقد بين سبحانه وتعالى هذه النعم تحت اسمه "الرحمن" كمظهر من مظاهر رحمته بالإنسان، وأبرز في مطلعها هذه النعم الأساسية الثلاث السالفة فكانت براعة استهلال لسورة الآلاء والنعم، ولنقرأ قول الله تعالى في ذلك "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ القُرْآنَ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ". (٢٩)

ونعمة الخلق هذه نستبين جوانبها وأهدافها وآثارها في أمور ثلاثة:

الأول: "تحقيق معنى خلافة الإنسان عن الله تعالى في الأرض إيمانا وعملا بقول الله تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً"(٣٠). والخلافة تقتضي الخليفة أن يحقق منهج من استخلفه فلا تتأتي حقيقتها

إلا إذا عاش الإنسان حياته، وحقق وجوده بمنهج الله تعالى والتحقق بالإنسانية الكاملة.

الثاني: السعي لتحقيق عمارة الأرض إيمانا وعملا امتثالا لقول الله تعالى "هو أَنْشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا". (٣١) وعمارة الأرض تكون بالعمل الصالح الجاد المثمر الذي يحقق السعادة لبني البشر، ولا يكون ذلك إلا بالالتزام بمنهج الله تعالى وتطبيقه.

الثالث: تحقيق وإقامة العبادة لله تعالى إيمانا وعملا بقول الله:"وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ ومَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَةِ المَتِينُ". (٣٢)

فالله تعالى هو الذي أنشأ الإنسانية من نفس واحدة، وهي الإنسان الأول، الذي تسلسل منه سائر الخلق بالتوالد.... وهو آدم – عليه السلام – كما قرر القرآن الكريم في قوله تعالى: وبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنَ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ" فقول الله تعالى: "ثُمَّ سَوَّاهُ ونَفَخَ فِيهِ مِن رُوحِهِ". بعد أن ذكر مادة خلق الإنسان بصفة عامة يفيد أن التسوية ونفخ الروح شامل للنوع الإنساني كله.

وفي إنشائه جميع الناس من نفس واحدة، آيات بينات، على شمول قدرة الله تعالى ووحدانيته، كما أن في التذكير بذلك إيماء إلى ما يجب من شكر على نعم الله الظاهرة والباطنة.

ولذا كان اهتمام الإسلام بالإنسان، فيه ترسيخ لمعنى الإنسانية العام في نفس المسلم، الذي يقرأ القرآن، ويستمع إليه ويعمل به، وقبل هذا وذاك يبين وحدة الجنس البشري.

كما أن القرآن الكريم لا يخاطب العرب فقط، ولا قومية معينة، ولا شعبا معينا بل يخاطب الإنسان في كل زمان وفي كل مكان ليقيم بين البشر جميعا رابطة الإنسانية القائمة على ربط البشر

جميعا بالله تبارك وتعالى ولذا يتحقق معنى العبادة والعبودية لله تعالى إلا بأمرين:

الأول: تمام المعرفة والإيمان بالله وحده لا شريك له.

الثاني: تمام الإسلام والتسليم والخضوع لله تعالى والاستعانة به وحده. للظفر التحقق بإياك نعبد وإياك نستعين.

وبهذه العطاءات الثلاثة: الخلافة. والعمارة. والعبادة. تتحقق معاني الإنسانية في الحياة البشرية للنفس الإنسانية في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: "إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ والعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ". (٣٣)

ومن هنا فأيما أمر تخلف من هذه العطاءات الثلاثة فإنه يضطرب مع تخلفه أمر الحياة وأمر إنسانية الإنسان فيها، وتضيق عليه الأرض بما رحبت، وهذا هو السر فيما يعانيه الإنسان من توتر وقلق وانفصام.

نعم: لقد فتتت "المادية المفرطة والروحية المتعنتة" ممثلة في الحضارة المادية المعاصرة كيان إنسانية الإنسان، ومزقت حقيقته، وقضت على مهمته الحقيقية في الوجود، ولذلك تاه الإنسان تيهانا مروعا في ظلمات جاهلية المادة، وعبر هذا التيه إلى الإنسانية بصفة عامة والإنسان المسلم بصفة خاصة فأفسده وجعله ريشة في مهب ريح القيم الحضارية المادية، التي انطبعت عليها حياتهم وسلوكهم فلم يعد لديهم وزن للأديان والقيم والأخلاق. (٣٤)

وبجانب هذا وذاك تقلبت الإنسانية على المادية الملحدة بصورها التي تعمل على أن تصبح الإنسانية بلا ماض، ولا تاريخ، ولا وجود، فأصبحت فريسة للإلحاد الأعمى الأصم، الذي يرى بعين واحدة.... يحاور ويداور ليشوه مصابيح إنسانية الإنسان حتى أصبح الإنسان ترسا في آلة أو عملة اقتصادية في سوق الصناعة والتجارة .... تعلو وتهبط في طبقاتها، بمعيار العرض والطلب، وصفقات الرواج والكساد.... كما قالت الفاشية بالجنس السيد والجنس المسود،

وأن أبناء الإنسانية جميعا عبيد للعنصر السيد، أو الإنسان يولد بذنب غيره... إلى آخر هذه الشعارات المضللة والمضللة كالشيوعية والرأسمالية ....[٣٥]

أما الإنسانية في القرآن الكريم فتحمل عطاءات الوحي الإلهي وأصحابها متدبرون، يستمعون إلى صوت العقل كما يستمتعون إلى صوت الإيمان الذي فطروا عليه، ومن هنا تعلق بها معنى التكليف والجزاء ثوابا وعقابا قال تعالى: "مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ"[٣٦].

الإنسان في القرآن الكريم هو الخليفة المسئول، بين جميع ما خلق الله. تدين بعقله فيما رأى وسمع.... ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب، مما لا تدركه الأبصار والأسماع.

كما أن الإنسانية من أسلافها إلى أعقابها كينونة واحدة، ولها فطرة واحدة، ولها نسب واحد، وإله واحد هو الرحمن الرحيم.

وهذا ما نادت به الفطرة السليمة، والعقيدة الصحيحة، والدعوة الحكيمة، وهذه جماع الأمان للحياة والإنسان ضد أي انحراف أو تزيف أو شقاء.

فالفطرة السليمة هي أصل ما خلقنا عليه، وأي تشويه لها هو تمزيق للإنسان من داخله ومن خارجه فلا يستقيم مع الحياة، ولا تستقيم به الحياة.

والعقيدة السليمة أساس للبناء ولا يستقر للإنسان كيان بدونها والدعوة الحكيمة لهما هي عملية الحراسة والتزكية، وبغيرها ينهار بناء الإنسانية عامة.

ثانيا: نعمة الهداية.

* وأما نعمة الهداية فتتركز في النفس الإنسانية على دعامتين:

الركيزة الأولى: إلهية.

والركيزة الثانية: إنسانية.

الأولى: تتمثل في الارتباط العقائدي بين الأنبياء والرسل إيمانا وعملا قال تعالى: "لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمْ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسَ بِالقِسْطِ".[٣٧] فقد أبلغ كل رسول قومه بالبينات التي حملها الوحي الإلهي لنيل السعادة في الدنيا والآخرة، فتوازن بالإيمان إنسانية الإنسان بلا إفراط ولا تفريط قال تعالى: "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا" [٣٨].

ولذا كان النداء الإلهي ليقيم بين الخلق جميعا رابطة الإنسانية، القائمة على ارتباط البشر جميعا بالله الخالق سبحانه وتعالى.

والثانية: الركيزة الإنسانية وتتخلص في:

١) الفطرة.

٢) العقل.

فالفطرة التي فطرنا الله تبارك وتعالى عليها مهيئين للإيمان به هي فطرة التوحيد التي لا تصلح الحياة الإنسانية إلا بها. فهي اللباس الكامل لمواجهة كافة جوانب الحياة قال تعالى: "وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الله لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ"[٣٩]. وقال تعالى: "فِطْرَةَ الله الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلٌ لِخَلْقِ الله ذَلِكَ الدِّينَ القَيِّمَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ". [٤٠]

وفي هذا البيان الإلهي ما يفيد أن أي ثوب آخر غير ثوب فطرة الإيمان فلن تتأتى موافقته بحال لتحقيق إنسانية الإنسان. لأنه إما أن يكون قاصرا خانقا، وإما أن يكون واهما خادعا، وهذا وذلك يجعل الحياة الإنسانية بعيدة عن التمييز بين ما هو خير وما هو شر من القول أو الفعل مهما تزى الإنسان بلباس العنف أو الوهم. [٤١]

وأما العقل: فقوة مدركة في الإنسان خلقها الله تعالى فيه ليكون مسئولا عن أعماله، ولهذا بين الله تعالى أن سبب الانحراف

والضلال للأمم السابقة هو عدم العمل بمقتضى العقل، كما أخبرنا الوحي الإلهي عن حال المخالفين للعمل بمقتضاه: "وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ" (٤٢). وقال تعالى: "يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ" (٤٣). وقال تعالى: "أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ"(٤٤).

على ضوء هذه النصوص يتضح لنا الفرق بين الإدراك والعمل بمقتضى الإدراك، كما توقفنا هذه المعطيات على أن الطبيعة الإنسانية طبيعة متعددة الخصائص والدوافع والميول، ويرجع بعض ذلك إلى التكوين المادي وبعضه الآخر إلى التكوين النفسي والروحي، وبعضه إلى العلاقة بينها وبعضه إلى الكيان الكلي للإنسان فهو أمشاج من هذا كله قال تعالى: "إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا". (٤٥)

والعقل إزاء نعمة الهداية متوائم ومتسق معها، فلا هي بالمتناقضة معه، ولا هي بالمقحمة عليه، وإنما يقبلها عن اقتناع قال تعالى: "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ". (٤٦)

وقال تعالى: "أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ"(٤٧) فإذا فسدت الفطرة برفض الدين، أو عمى العقل عن حقيقتها بفساد التدين فإن ذلك يفسد على الإنسان ما يميزه ويدمر حياته ويمزقها حتى يضل الطريق.

ذلك أن رفض الدين مصادمة للفطرة، وفساد التدين مصادمة للعقل، وكيف يتأتى لإنسان أن تستقيم له حياة إنسانية وهو مصادم لفطرته وعقله؟ كما لا يستقيم أمر الفطرة إلا بالرسالة، ولا تستبين السبيل أمام العقل إلا بها؟

ومن هنا جاء الأمر صريحا "فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا" (٤٨) وأيما إعراض عن الدين يفسد على الإنسان إنسانيته، ويملأ الأرض

ظلما وطغيانا وفسادا. قال تعالى: "وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنْسَى وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى"(٤٩).

ثالثا: نعمة الفكر والبيان.

وهذه النعمة اختص الله – تبارك وتعالى – بها الإنسان من بين سائر المخلوقات، وجعلها مبدأ كماله ومناط فضله على من أعده للخلافة في الأرض بتصور المعقولات. وإدراك المعاني الكلية، وهذا العطاء لا يوجد لدى المخلوقات التي يقتصر إدراكها على الجزئيات كالحيوانات، واختصاص الإنسان بالفكر يستلزم وجود الروح إذ يمتنع أن تكون المادة أساسا للإدراكات والأفعال العقلية لما بينهما من المغايرة، وذلك لأن طبيعة المادة أنها خالية من الشعور فضلا عن الاختيار بينما التعقل أو الفكر الذي تتسم به إنسانية الإنسان لا ينفك عنها. (٥٠) "لأن الله تبارك وتعالى جلت قدته، قد فطر الإنسان، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان، وأودع فيه شعورا بلذات وآلام غير جسدية، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية خلقه مستعدا لإدراك معلومات غير محصورة، إذ خلقه ليحيا حياة غير محدودة، وجعل مدار حياته على التعاون والاجتماع، ليستعين بذلك على استجلاء ما في الكون من النظام والإبداع، كما أنشأ أفراده متفاوتين في الاستعداد للعلوم والأعمال ليتيسر لمجموع بني الإنسان القيام بجميع العلوم والأعمال. فأدناهم الخدم والبناءون والزارعون.....

وأعلاهم: الساسة العادلون، والحكماء المصلحون، فالأنبياء والمرسلون، فهؤلاء في بناء كينونة الإنسانية كالمشاعر والعقول والقلوب والأرواح، وأولئك كالأرجل والأيدي والمعد والأمعاء، فمنهم من يقوم للنوع الإنساني بأدنى ما يحتاج إليه، ومنهم من يهديه إلى أعلى ما يتشوف استعداده إليه مع إحسانه التصرف

فيما هو قائم عليه، وهذه الهداية هي هداية الدين الذي هو قوام الفطرة للإنسان الناهض بها إلى طلب الكمال في العلوم والأعمال(٥١).

ومن هنا فقد وصف القرآن الكريم الإنسان بالعقل والعلم والفقه والنظر والتفكر والتدبر والتبصر والاستنباط إلى غير ذلك من الصفات.

ونبه بجانب هذه الخصائص الإنسانية إلى القوة التي تقوم بتلك الوظائف والمصدر الذي تنشأ عنه وهو الروح الذي سماه بالقلب أو الفؤاد أو اللب، أو النفس الآمنة المطمئنة. قال تعالى: "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" (٥٢)

إن ماهية إنسانية الإنسان وطبيعته أنه هيئ على فطرة سلمية، ولكن تعتريها المتغيرات فتفسدها، وهيئ بعقل مميز، ولكن قد تغشاه الغوا شي فتضله، وأرسل إليه الهداة المصلحون للأخذ بيده من جانب ولنشر القدوة بين كافة الخلق من جانب آخر، وأنزلت له الكتب لإقامة البرهان المؤيد بالمعجزات، ومع كل هذا قد يعرض عنها أو عنهم فيضل الطريق الذي أعد له.

ولنقرأ في هذا المقام أول نجم طلع في أفق الحياة الإنسانية، من كتاب الرسالة الخاتمة وهو يجلي هذه القضايا السالفة حول بيان المنح الإلهية لإنسانية الإنسان بوضوح وحسم.

فيقول: "اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ" (٥٣)

فهذه الحياة الإنسانية وهذا الوجود المعد للخلافة في الأرض، ليس وليد الصدفة ولكن له خالق وهو الله تبارك وتعالى، والإنسان مخلوق له وليس نتيجة حتم ولا تطور ولا تسلسل، وحسمت بهذا قضية الحياة وعرف مصدرها وحقيقتها.

اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٥٤).

وهذه قضية إنسانية الإنسان وأنه خرج إلى الحياة لا يعلم شيئا، والذي خلقه لم يتركه عبثا، ولكن كما أنعم عليه بنعمة الخلق والوجود من العدم أنعم عليه بنعم الهداية والفكر والبيان. "إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا"(٥٥).

ومن هنا يتضح لنا الكشف عن المنح والعطايا التي منحها خالق الإنسان للإنسان ظاهرة وباطنة، ومع هذا قد ينحرف الإنسان عن درجة الإنسانية حين يجاوز الحقيقة ويظن نفسه قد استغنى والواقع أنه قد استغنى عن إنسانيته.

إن الإنسان في هذا الكون أشبه ما يكون بالطفل الضعيف المدلل يحمل في ضعفه قوة كبيرة، وفي عجزه قدرة عظيمة، لأنه مع شدة ذلك الضعف، وقدرة ذلك العجز قد سُخِرَتْ له كافة الموجودات في الكون.!!

والمتأمل حول سبب تلك السلطة يدرك أنها ليست بما يملك من قوة، ولا بما يقدر عليه من علم، بل الرحمة الإلهية التي سخرت له الأشياء ومنحته القدرة عليها وسلمتها إليه.

والسؤال الذي يطرح نفسه في نهاية هذا البيان يتلخص في:

ماذا يترتب على الإنسان والكينونة الإنسانية نتيجة لهذا التفرد؟

لقد كرم الله الإنسان بشتى أنواع التكريم كما تبين فيما تقدم، فالإنسان وإن كان مخلوقا من الطين، إلا أنه منح من شرف الروح ما تقصر دونه الخواطر وتعيا عن إدراكه المدارك بتكريم الله لكل أفراد بني آدم وجعلهم "خلائف الأرض قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ". [الأنعام ١٦٥].

والخطاب في هذه الآية كما يستدل من سياقها للبشر عامة، كما أشارت إليه الآية في سورة فاطر قال تعالى: " هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ

خَلائفَ فِي الأرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ". [فاطر الآية ٣٩] كما تقول الآية قبل هذه الآية: "إنَّ الله عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ والأرْضِ إنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدورِ" [فاطر الآية ٣٨].

وهذا هو الواقع الذي أقام فيه الإسلام الإنسان بالنسبة لهذا الكون، وهو المستخلف والمكلف بالعمل فيه واستثماره والمهيمن عليه، باستخلاف الله الخالق له وللكون المستخلف فيه وتهيئته لمنافع الإنسان ومصالحه. نعم: هو الذي جعلكم خلائف في الأرض يخلف بعضكم بعضا لعمارة هذه الأرض والخليفة على قدرما يعطى يطالب في حدود استطاعته.

حيث كرم الله الإنسان بالعقل والتفكير والتسخير لكل شيء له في الكون كالماء والهواء والتراب، ليس هذا فحسب بل لكل ما في السموات والأرض من جانب، وعلى جميع المخلوقات من جانب آخر، كما كرمه بالتكليف وإرسال الرسل – عليهم الصلاة والسلام – كل رسول لقومه ثم بالرسالة العامة والشاملة على يد خاتم الأنبياء سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – رحمة للعاملين.

ولذا كان الأساس في بناء إنسانية الإنسان في القرآن الكريم يتلخص في نظرة الإسلام إلى الإنسان وتكريمه، وهذه الكرامة التي اختص الله بها الإنسان ذات أبعاد متعددة، فهي حماية إلهية للإنسان تنطوي على احترام حريته وعقله وفكره وذريته،(٥٦).

وهذه الكرامة تعني في النهاية الحرية الحقيقية وهي تلك الحرية الواعية المسئولة التي تدفع أهمية تحملها أمانة التكليف والمسؤلية. (٥٧) المشار إليها في قول الله تعالى: "إنَّا عَرَضْنَا الأمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأرْضِ والجِبَالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ" [سورة الأحزاب الآية ٧٢].

وإذا كان الله – تعالى قد اختص الإنسان بالتكليف والمسؤلية فإنه من ناحية أخرى قد خلق له هذا الكون بما فيه ليمارس فيه نشاطاته المادية والروحية على السواء قال تعالى: "وسَخَرَ لَكُمْ مَا فِي

السَّمَوَاتِ ومَا فِي الأرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إنَّ فِي ذَلِكَ لأيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ" [سورة الجاثية الآية ١٣].

وهذا النداء الذي تنص عليه الآية أمر جوهري لا ينبغي أن يغيب عن الأذهان، فإذا كان الله قد سخر للإنسان هذا الكون فلا يجوز له أن يقف منه موقف اللامبالاة بل ينبغي عليه أن يتخذ لنفسه منه موقفا إيجابيا، وإيجابيته تتمثل في إعمال العقل والنظر فيه للاستفادة منه بما يعود على الإنسانية بالرشد المادي والروحي (٥٨) وصدق الله العظيم حين قال "سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الحَقُّ"[فصلت٥٣].

وهذه الرؤية تشير إلى عطاء الإسلام في تكوين الإنسان المؤهل للاستخلاف عن الله في الأرض. فالله جلت حكمته الذي سخر الكون للإنسان قد رتب على ذلك أن جعل الإنسان هو المسئول الوحيد أمامه من هذه المخلوقات المرئية كلها فقال: "أيَحْسَبُ الإنْسَانُ أنْ يَتْرُكَ سُدًى"[القيامة ٣٦].

وهذا يقتضى أن يتذكر الخلق أنهم مفارقون لهذه الحياة إلى حياة أخرى، فلا يغتروا .....ولينظروا إلى أنفسهم وهم خلفاء لله قال تعالى: "ومَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلا لِيَعْبُدُونَ" [الذاريات ٥٦]. وهذا النداء الإلهي يوقفنا على أن سيادة الإنسان على الكون تتحقق له بقدر ما يتحقق هو من عبوديته لله، وما لم يعط الإنسان العبودية كامله لله يكون قد أقام نفسه مقام سائر المخلوقات الكونية كالجماد والنبات والحيوان غير المكلفين، ولهذا وذاك نرى القرآن الكريم قد أعطى البيان الكافي على عدم إنسانية من لا يلتزم بطاعة الله تعالى فقال: "وإذَا رَأيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أجْسَامُهُمْ وإنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ" [المنافقون ٤].

وفي هذا تصوير لحالهم حيث شبهوا وهم جالسون مستندون إلى الحائط بالخشب المسندة التي لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر الخالص إذ لا روح فيهم تعقل، ولا بصيرة تبصر الخير والحق من المواعظ والآيات والحجج البينات لقسوة قلوبهم واستبعاد

الإيمان منهم كما تقول الآيات "ثُمَّ قست قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلك فهي كالحِجَارَةِ أو أَشَدُّ قَسْوَةً" [البقرة ٧٤].

فكأنها خرجت عن دائرة الحيوان إلى دائرة الجماد، بل خرجت عن دائرة الجماد أيضا فها هي ذي الحجارة تتأثر بالماء تارة فيتفجر منها الماء بكثرة فيتكون النهر. وتارة تتشقق شقوقا يخرج منها الماء ولو بسيطا، والحجارة قد تأثرت بالمؤثرات الخارجية فتسقط منقادة لله وحده، ولكن قلوب هؤلاء لم تتأثر بالمؤثرات ولا بالمواعظ فكانت أقصى من الحجارة أو أشد قسوة منها. ولذا جاء النداء الإلهي مشيرا إلى حالهم فقال: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ". [سورة الأنفال آية ٥٥].

وفي هذا البيان الإلهي إشارة إلى أنهم لم يبلغوا درجة الحيوانات والدواب بل أضل؛ وذلك لطمسهم لمعالم الإنسانية فهم لا يؤمنون ولا يرجى منهم خير قال تعالى: "إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الذِينَ لا يَعْقِلُونَ". [سورة الأنفال الآية ٢٢].

وقال تعالى: "لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ". [الأعراف ١٧٩].

أي عن آيات الله في الكتاب المقروء كما هم غافلون عن آيات الله في الكتاب المنظور، بل وغافلون عن مشاعرهم وعقولهم فيما خلقت لأجله، بل وغافلون عن ضروريات الحياة التي تلتئم بها فطرتهم في الدنيا والآخرة قال تعالى: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مثوى لَهُمْ" [سورة محمد الآية ١٢].

فالذين كفروا في الدنيا يتمتعون متاعها الفاني أياما قليلة، ويأكلون أكلا كأكل الأنعام أي مجردًا عن التفكير والنظر إلى عواقب الأمور، فهم يأكلون غافلين عن الآخرة. والحال أن النار مثوى لهم.

ولذا جاء التحذير للأمة الخاتمة من الوقوع في مثل حالهم قال تعالى: "مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا".[الجمعة ٥].

فهم يدعون ولا يعملون، ويحملون ولا ينتفعون "كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أو تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ" [الأعراف ١٧٦] لخلوده إلى الأرض، وجعل كل همه التمتع بلذائذ الحياة الفانية، واتبع هواه، وران علي قلبه ما كان يكسب حتى صار حيوانا شهوانيا ظلمانيا.

البيان الإلهي يكشف عن حال الإنسان المؤمن والكافر في الدنيا والأخرة، وأن مشيئة الله متلازمة مع عمل الإنسان وتابعة له، وأن الامتثال لطريق الفطرة هو وحده الذي يطلق طاقات الكينونة الإنسانية كلها في طريقها الصاعد نحو الكمال، وأن ترك أمر الله تعالى يعني إطلاق هذه الطاقات نحو الحيوانية وتجريد ماهية الإنسان من الإنسانية.

وهذه تمثل حقيقة إنسانية الإنسان في القرآن، وأنه الثمرة النهائية لشجرة الخلقة التي خلقها الله تعالى من المادة والروح حاملة سمات التفرد التي اختص الله بها الإنسان كما أشارت إليها سطور هذا البحث. ومن المعلوم أن الثمرة هي أبعد أجزاء الشجرة وأجمعها وألطفها، ولذا كان الإنسان عالما وحده من بين المخلوقات حيث سخر له الكون، بإقدار الله له لتنظيم أنواع النعم المبثوثة والمنشورة في الكائنات وربطها بأوامر المنافع التي تخص الإنسان لتجمله بفطرته التي فطر عليها.

وهذه قضية إنسانية الإنسان ومن هنا تترى عليه مصابيح الهداية لترشده إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة. إن إلى ربك الرجعى.

وتلك خاتمة المطاف والمصير الذي ترد إليه الحياة والإنسان ليظفر بالإنسانية من امتثل طريق الفطرة والتوحيد في أبد لا يزول، ونعيم لا يحول. والله ولي التوفيق.

التعليقات والحواشى

١- انظر الأستاذ الدكتور صلاح عبد العليم - رحمة الله - الإنسان في القرآن ج ١ ص ٥٧ ط. الأولى ١٩٨٣م

٢- سورة تبارك الآية ١٤

٣- انظر المصباح المنير ومختار الصحاح والمعجم الوجيز ولسان العرب للاشتغال بالماديات التي لا تقوم الدنيا إلا بها، فهم خلقوا من النور وآدم خلق من الطين، كما أن تكريم الله للإنسان حيث أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تعظيم وإجلال، لا سجود عبادة وتأليه كما يفعل الكفار مع أصنامهم. راجع الأستاذ الدكتور محمد محمود حجازي التفسير الواضح الآية ٣٠ من سورة البقرة ط السابعة ١٩٧٩م مادة : " أ.ن.س "

٤- انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الإصفهاني ص٥٨

٥- راجع الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة للدكتور محمد غلاب ص٥٨

٦- انظر النمط الرابع في الوجود وعلله من كتاب الإشارات لابن سينا

٧- طبيب ألماني. وهو مادي ملحد ينكر كل ما هو وراء الطبيعة ولا يقرر إلا وجود المادة التي يرى أنها مستودع جميع القوى الطبيعية وجميع القوى التي تدعى روحية وهي: القضية التي ضمنها كتابة "القوة المادية"

٨- أرنيست هيكل: عالم طبيعي ألماني عاش بين عامي ١٨٣٤ - ١٩١٩م كان أستاذا لعلم الحيوان. مادي ملحد. أيد مذهب التطور وأرجع الإنسان إلى الحيوان قبل داروين. وله كتاب ألغاز الكون. يعرض فيه المادية الآلية. ويرى أن الموجود الضروري الوحيد هو: المادة ثم تطورت على التوالي حتى تكونت جميع الكائنات

الحية من الأزوت والهيدروجين والأكسوجين والكربون. وله فلسفة النشوء والارتقاء

٩- صاحب هذه الدراسة الفيلسوف "دى لامترى" وهو فيلسوف عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر. راجع تاريخ الفلسفة الحديثة ليوسف كرم، وراجع فلسفة النشوء والارتقاء.

١٠- راجع المرجع السابق للدكتور يوسف كرم.

١١- راجع الأستاذ الدكتور محمد غلاب الفلسفة الشرقية ص ١٠٦ وما بعدها.

١٢- انظر الملل والنحل للشهرستانى ح ٢ ص ٢٦٤ تحقيق الدكتور بدران

١٣- راجع الشيخ محمد عبده تفسير جزء عم ط دار الشعب وراجع أ.د. سعد الدين السيد العقيدة الإسلامية ح ١ ص ١٤ ط ١٩٨٣م

١٤- راجع الإمام الغزالي الرسالة اللدينة ص ١٠٠ من مجموعة القصور العوالي نشر مكتبة الجندي. وميزان العمل ص ٢٥ والأجوبة الغزالية ص ١٠ ورسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ص ١٨٩ ط دار الهلال بالقاهرة

١٥- سورة ص الآية ٧١ وما بعدها وراجع سورة الإسراء في تفسير الشيخ محمد محمود حجازي وأن تكريم الله للإنسان بالعقل والتفكير قائم على تسخير كل شئ له كالماء والهواء

١٦- سورة السجدة الآيات ٧ وما بعدها

١٧- سورة الحجر الآيات من ٦٨ وما بعدها

١٨- سورة آل عمران الآية ٥٩

١٩- سورة الواقعة الآيات ٥٨ وما بعدها

٢٠- انظر تفسير مفاتيح الغيب للرازي ح ٥ ص ٦٥٤ والإتقان في علوم القرآن للسيوطى ح ٢ ص ٣٥

٢١- سورة المؤمنون الآيات من ١٢ - ١٤

٢٢- سورة الحج الآية ٥

٢٣- سورة الطارق الآية ٧

٢٤- سورة النجم الآية ٤٥ وما بعدها

٢٥- سورة الإنسان الآية ٣

٢٦- سورة المرسلات الآية ٢٣

٢٧- سورة الزمر الآية ٦ وانظر تفسير الرازي ح ٢ ص ٦٥٤

٢٨- وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في هذا المعنى: إذا تم للنطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكا فينفخ فيها الروح فذلك قوله تعالى "ثم أنشأناه خلقا آخر. راجع فتح الباري شرح أحاديث الإمام البخاري

٢٩- سورة الرحمن الآية ٤

٣٠- سورة البقرة جزء من الآية ٣٠ وفي هذه الآية بيان لتكريم الله تعالى للإنسان "آدم ونبيه" بمنحة الخلافة وتعلمه ما لا تعلمه الملائكة، والمعنى: اذكر يا محمد صلى الله عليه وسلم لقومك قصة خلق أبيهم آدم حيث قال الله تعالى: للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة لي يقوم بعمارتها وسكناها حتى يعمر الكون. فقالت الملائكة: يا رب هذا الخليفة ونبوه تصدر أفعالهم عن إرادتهم واختيارهم، وهم لا يفقهون الحقيقة، لأن علمهم محدود، وقد خلقوا من طين فالمادة جزء منهم، ومن كان كذلك فهو إلى الخطأ أقرب بالفساد في الأرض، وأنت يا رب: تريد عمارتها...

فيا رب كيف تجعل في الأرض من يفسد فيها؟

استفهام من لون التعليم لا الاعتراض، ونحن أولى لأن أعمالنا تسبيحك وتقديسك لا نعصى الأمر ونفعل ما نؤمر به.

فكان الجواب: إني أعلم ما لا تعلمون، فهذا خلق فيه دواعي الخير والشر، وبهما تصلح الدنيا وتعمر، ولذا كانت الحكمة من إرسال الرسل.

و الحكمة في موضع السر: أن الله تعالى علم آدم أسماء الأشياء المادية، التي تعمر بها الدنيا وتصلح. ثم عرض هذه الأشياء على الملائكة، وقال لهم: أخبروني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين في دعوى أحقية الخلافة. فوقفوا عاجزين.

و قالوا يا رب لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم بكل شئ الحكيم في كل صنع. فقال الله تعالى: يا آدم أخبرهم بأسمائهم فلما أخبرهم بالأسماء أدركوا السبب في خلافة آدم وبنيه. وأنهم لا يصلحون لعدم استعدادهم للاشتغال بالماديات التى لا تقوم الدنيا إلا بها، فهم خلقوا من النور وآدم خلق من الطين كما كان تكريم الله للإنسان حيث أمر الملائكة بالسجود لآدم سجود تعظيم وإجلال، لا سجود عبادة وتأليه، كما يفعل الكفار مع أصنامهم. راجع أ.د. محمد محمود حجازى : "التفسير الواضح" لآية ٣٠ من سورة البقرة ط السابعة ٧٩.

٣١- سورة هود جزء من الآية ٦١

٣٢- سورة الذاريات الآيات ٥٧ ما بعدها

٣٣- سورة فاطر جزء من الآية ١٠

٣٤- راجع الإمام بديع الزمان سعيد النورسي كليات رسائل النور مجلد الكلمات ص ٣٤٩ وما بعدها.

٣٥- راجع أ.د. أحمد عبد الرحيم السايح في بحثه القيم الفضيلة والفضائل في الإسلام ص ١٤ وما بعدها ط الأولى ١٩٩٧م.

٣٦- سورة ق الآية ١٨

٣٧- سورة الحديد جزء من الآية ٢٥

٣٨- سورة البقرة جزء من الآية ١٤٣

٣٩- سورة الأعراف الآية ٢٦

٤٠- سورة الروم الآية ٣٠

٤١- راجع أ.د. حسن عيسى عبد الظاهر في بحث الدعوة والدعاة في الإسلام

٤٢- سورة الملك الآية ١٠

٤٣- سورة البقرة الآية ٧٥

٤٤- سورة البقرة الآية ٤٤

٤٥- سورة الإنسان الآية ٣

٤٦- سورة البقرة الآية ٢٥٦

٤٧- سورة يونس الآية ٩٩

٤٨- سورة الروم الآية ٣٠

٤٩- سورة طه الآية ١٢٤ وما بعدها

٥٠- راجع العلامة ابن خلدون المقدمة وراجع إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ومعارج القدس في مدارج معرفة النفس. وميزان العمل للغزالي.

٥١- راجع رسالة التوحيد للإمام الشيخ محمد عبده مقدمة الناشر بتصرف يسير

٥٢- سورة الرعد الآية ٤ والآيات في هذا المقام كثيرة كما في سورة الروم الآية ٢٤، والبقرة ٣١، والعلق غيرها من الآيات التي تحمل سمات إنسانية الإنسان

٥٣- سورة العلق الآية ٢

٥٤- سورة العلق الآية ٧

٥٥- سورة الإنسان الآية ٣

٥٦- ومعنى الاستخلاف أن الله عهد إلى الإنسان وأوكل إليه عمارة هذه الأرض والقيام بشأنها والانتفاع بها ومكنه منها، وجعل له سلطانا عليها كوكيل عن الله تعالى على أن يلتزم بالمنهج الإلهي ولا يتعدى الحدود المقررة له حتى يمكنه تملك سمات التفرد.

٥٧- انظر الدكتور محمد عبد الله دراز دراسات إسلامية ص ٣٣ وما بعدها ط دار القلم بالكويت

وراجع الدكتور محمد محمود حجازي التفسير الواضح آيات سورة الإسراء في الآية ٧٣ ط السابعة ١٩٧٩م

٥٨- راجع الدكتور محمود حمدي زقزوق مدخل إلى الفلسفة.